

ندوات إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة الصحابة - الدرس ٧ : الصحابي حذيفة بن اليمان .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٧-٠١-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة والأخوات، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وأهلاً ومرحباً بكم في بداية هذه الحلقة الجديدة من برنامج صور من حياة الصحابة.

يسعدنا أن نستضيف في هذه الليلة المباركة، فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي ؛ الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق وأحد خطباء مساجد دمشق.

فضيلة الشيخ، أوقاتكم طيبة

الشيخ: أهلاً وسهلاً ومرحباً.

السائل: الصحابي الجليل حذيفة ابن اليمان ؛ هذا الصحابي الجليل له صور مشرقة في تاريخنا الإسلامي المشرق، حبذا لو نلقي الضوء بدايةً على هذه الشخصية الفذة.

الشيخ: نشأ حذيفة ابن اليمان في بيت مسلم، وربّي في كف أبوين من السابقين للدخول في الإسلام، فأسلم قبل أن تكتحل عيناه بمرأى سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام.

وكان شوق حذيفة إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأ جوانحه فهو مازال منذ أسلم يتسقط أخباره، ويُلح في السؤال عن أوصافه فلا يزيدُه ذلك إلا ولعاً، وحينئذ إليه.

فرحل إلى مكة ليلقاه، فما إن رأى النبي صلى الله عليه وسلم حتى سأله يا رسول الله: أمهاجر أنا أم أنصاري ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار فاختر لنفسك ما تحب، قال: بل أنا أنصاري يا رسول الله.

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لازمه حذيفة ملازمة العين لأختها، وشهد معه المواقع كلها إلا بدرًا، أما تخلف هذا الصحابي الجليل عن موقعة بدر فلها قصة يرويها حذيفة بنفسه.

قال: ما معني أن أشهد بدرًا إلا أنني كنت خارج المدينة أنا وأبي أخذنا كفار قريش وقالوا: أين تقصِدون ؟ فقلنا المدينة ! فقالوا: إنكم تريدون محمدًا ! قلنا: ما نريد إلا المدينة، فأبوا أن يُطلقونا إلا بعد أن أخذوا العهد علينا أن لا ننصر محمدًا عليهم، وأن لا نقاتل معه، ثم أطلقوا صراحنا، ولما قدّمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بما قطعناه من عهد قريش وسألناه ماذا نصنع ؟ فقال: نفي بعهدهم ونستعين عليهم الله !

السائل: ما هذا الوفاء الرائع الذي نشهده في هذا الحديث ؟

الشيخ: أخي جمال، يقول عليه الصلاة والسلام: ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

سَبَرَ النبي صلى الله عليه وسلم غَوْرَ حُدَيْقَةَ بنِ الْيَمَانِ فَتَجَلَّتْ فِيهِ خِلَالُ ثَلَاثٍ ذَكَاءٌ فَذَّ يُسْعِدُهُ فِي حِلِّ الْمُعْضِلَاتِ، وَبِدِيهَةٌ مُطَاوِعَةٌ تُلَبِّيهِ كُلَّمَا دَعَاها، وَكَيْتْمَانٌ لِلسِّرِّ فَلَا يَنْفِذُ إِلَى غَوْرِهِ أَحَدٌ، وَكَانَتْ مِنْ سِيَّاسَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَحْرِصُ عَلَى اكْتِشَافِ مَزَايَا أَصْحَابِهِ، وَالْإِفَادَةَ مِنْ طَاقَاتِهِمُ الْكَامِنَةَ فِي ذَوَاتِهِمْ، وَذَلِكَ فِي وَضْعِ الرَّجُلِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ، وَهُوَ يُعَدُّ الْيَوْمَ مِنْ أَرْقَى أَنْوَاعِ الْإِدَارَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ.

وَكَانَتْ أَكْبَرَ مُشْكَلَةٍ تُوَاجِهُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ هِيَ وَجُودُ الْمُنَافِقِينَ وَمَا يَحِيكُونَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مِنْ مَكَائِدٍ، وَدَسَائِسٍ فَأَفْضَى النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِحُدَيْقَةَ بنِ الْيَمَانِ بِأَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ سِرٌّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَعَهَدَ إِلَيْهِ بِرِصْدِ حَرَكَاتِهِمْ وَتَتَبُّعِ نَشَاطِهِمْ وَدَرَأِ خَطَرِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ دُعِيَ حُدَيْقَةَ بنِ الْيَمَانِ بِصَاحِبِ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ اسْتَعَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَوَاهِبِ حُدَيْقَةَ فِي مَوْقِفٍ مِنْ أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ خَطَرًا، وَأُحْوَجَهَا إِلَى الذِّكَاةِ الْفَذِّ، وَالبِدِيهَةِ الْمُطَاوِعَةِ وَذَلِكَ فِي نِرْوَةِ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، حَيْثُ كَانَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْعَدُوُّ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِهِمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ الْجُهْدُ وَالضَّنْكَ كُلُّ مَبْلَغٍ، حَتَّى زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَأَخَذَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونِ، حَتَّى أَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ: أَيْعِدُنَا صَاحِبِكُمْ - وَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ - أَنْ تَفْتَحَ عَلَيْنَا بِلَادَ قَيْصَرَ وَكَيْسَرَى وَأَحْدُنَا لَا يَأْمَنُ أَنْ يَفْضِيَ حَاجَتَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾

[سورة الأحزاب]

السائل: الأستاذ راتب بعد هذا الضيق الشديد الذي حصل، ما الذي حصل بعد ذلك ؟
 الشيخ: الحقيقة، أن الذي حصل الأخ جمال يُشْبِهُ الْمُعْجِزَةَ، فَلَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ الْحَاسِمَاتِ بِأَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ صَبَّ اللَّهُ عَلَيْهَا مِنْ غَضَبِهِ مَا أَوْهَنَ قُوَاهَا، وَزَلْزَلَ عِزَائِمَهَا، فَأَرْسَلَ عَلَيْهَا رِيحًا صَرُورًا تَقْلِبُ خِيَامَهَا، وَتَكْفُو قُدُورَهَا، وَتُقْفُو نِيرَانَهَا، وَتَقْدِفُ وُجُوهَهَا بِالْحَصْبَاءِ، وَتَسُدُّ عْيُونَهَا وَخِيَاشِيمَهَا بِالنُّرَابِ، وَفِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْحَاسِمَةِ فِي تَارِيخِ الْحُرُوبِ يَكُونُ الْفَرِيقُ الْخَاسِرُ هُوَ الَّذِي يَبْنُ أَوْلًا، وَيَكُونُ الْفَرِيقُ الرَّابِحُ هُوَ الَّذِي يَضْبِطُ نَفْسَهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ بَعْدَ صَاحِبِهِ.

السائل: يبدو لي الفرق ؛ الأستاذ راتب الفرق بين الصبر والمصابرة

الشيخ: نعم، وفي هذه اللحظات التي تُكْتَبُ فِيهَا مَصَائِرُ الْمَعَارِكِ يَكُونُ لِاسْتِخْبَارَاتِ الْجُيُوشِ الْفَضْلَ الْأَوَّلَ فِي تَقْدِيرِ الْمَوْقِفِ، وَإِسْدَاءِ الْمَشُورَةِ وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُدِيرُ أُمَّتَهُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْقِيَادَةِ الْحَكِيمَةِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ احْتِاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَاقَاتِ حُدَيْقَةَ ابْنِ الْيَمَانِ وَخَبْرَاتِهِ، وَعَزَمَ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ إِلَى قَلْبِ جَيْشِ الْعَدُوِّ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، لِأَيَاتِهِ بِأَخْبَارِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْرِمَ أَمْرًا، فَلَنْتَرِكَ لِحُدَيْقَةَ ابْنِ الْيَمَانِ لِإِحْدِثْنَا عَنْ رِحْلَةِ الْمَوْتِ هَذِهِ.

قال حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: كُنَّا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ صَافِينَ قُعودًا وَأَبُو سُفْيَانَ، وَمَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَوْقَنَا، وَبَنُو قُرَيْضَةَ مِنَ الْيَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا؛ نَخَافُهُمْ عَلَى نِسَائِنَا، وَدِرَارِينَا، وَمَا أَتَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظِلْمَةً وَلَا أَقْوَى رِيحًا مِنْهَا، فَأَصْوَاتُ رِيحِهَا مِثْلُ الصَّوَاعِقِ، وَشِدَّةُ ظِلْمِهَا تَجْعَلُ أَحَدَنَا لَا يَرَى أُصْبَعَهُ، فَأَخَذَ الْمُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَقُولُونَ: إِنَّ بِيوتَنَا مَكْشُوفَةٌ لِلْعَدُوِّ، وَمَا هِيَ بِمَكْشُوفَةٍ، فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا وَأَذَنَ لَهُ، وَهُمْ يَتَسَلَّلُونَ لِوَادًا نَاجِينَ بِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى بَقِينَا فِي ثَلَاثِمِئَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ، لِنُوجِهُ الْعَرَبَ كُلَّهُمْ وَقَدْ جَاؤُوا لِيَسْتَأْصِلُوا شَافَةَ الْمُسْلِمِينَ.

عند ذلك قام النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل يمرُّ بنا واحدًا واحدًا حتى أتى إليّ، وما عليّ شيءٌ يقيني من البردِ إلا مرطٌ لامرأتي ما يجاوزُ رُكْبَتِي، فاقْتَرَبَ مِنِّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَا جَافٍ عَلَى الْأَرْضِ قَالَ مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ حُذَيْفَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَتَقَاصَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهِيَةً أَنْ أَقُومَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ، فَقَالَ: إِنَّهُ كَائِنٌ فِي الْقَوْمِ خَبْرٌ فَتَسَلَّلْ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَاِئْتِي بِخَبْرِهِمْ! - لَعَلَّهَا رِحْلَةُ الْمَوْتِ - فَخَرَجْتُ وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فِرْعًا وَأَكْثَرَهُمْ بَرْدًا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمَنْ فَوْقَهُ وَمَنْ تَحْتَهُ وَدُعَاءَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَرُدُّ، فَوَاللَّهِ مَا تَمَّتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى انْتَرَعَ اللَّهُ مِنْ جَوْفِي كُلِّ مَا أُوْدِعَهُ مِنْ خَوْفٍ وَأَزَالَ عَنِّي جَسَدِي كُلَّ مَا أَصَابَهُ مِنْ بَرْدٍ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ، نَادَانِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَ: يَا حُذَيْفَةَ، لَا تُحَدِّثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي وَمَضَيْتُ أُتَسَلَّلُ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ، حَتَّى دَخَلْتُ فِي جُنْدِ الْمُشْرِكِينَ وَصِرْتُ وَكَأَنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى قَامَ فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ خَطِيئًا وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، إِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ قَوْلًا أَخِي أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّدًا! فَلْيَنْظُرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَنْ جَلِيسُهُ!! فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَخَذْتُ بِيَدِي الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ إِلَيَّ جَنَبِي، وَقُلْتُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟! قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَحِينَهَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ، مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ قَرَارٍ لَقَدْ هَوَتْ رَوَاحِلُنَا، وَتَخَلَّتْ عَلَيْنَا بَنُو قُرَيْضَةَ، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ فَارْتَحَلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ فَفَكَ عَقَالَهُ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ قَائِمًا، وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَنِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ فِيهِمْ شَيْئًا لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ! عِنْدَ ذَلِكَ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَيْتُ إِدْنَانِي إِلَى رَجْلَيْهِ وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفًا مِنَ الْمِرْطِ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبْرَ فَسُرَّ بِهِ سُرورًا شَدِيدًا، وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثَمَى عَلَيْهِ.

السائل: هنا كان الفرج من الله عز وجل.

الشيخ: وبعدها كفى الله المؤمنين القتال، والحقيقة ظلَّ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ مُؤْتَمِنًا عَلَى أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ، وَظَلَّ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ حَتَّى إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا مَاتَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُهُ أَحْضَرَ حُذَيْفَةَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ، فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنْ قَالُوا: لَا، شَكَّ فِيهِ، وَأَمْسَكَ عَلَى الصَّلَاةَ عَلَيْهِ، وَسَأَلَهُ مَرَّةً يَا حُذَيْفَةَ: أَفِي عَمَالِي أَحَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ: وَاحِدٌ فَقَالَ: ذُلْنِي عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ، قَالَ حُذَيْفَةُ لَكِنَّ عُمَرَ

رضي الله عنه ما لَبِثَ أَنْ عَزَلَهُ كَأَنَّمَا هُذِيَ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ قَلِيلاً مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ حُدَيْفَةَ
لِلْمُسْلِمِينَ نَاهَوْنَدَ وَهَمْدَانَ، كَانَ سَبَباً فِي جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَصْحَفٍ وَاحِدٍ بَعْدَ أَنْ كَادُوا يَفْتَرِقُونَ
فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ شَدِيدَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ اللَّهِ، وَعَظِيمَ
الْخَشْيَةِ مِنْ عِقَابِهِ، فَهُوَ حِينَئِذٍ ثَقُلَ عَلَيْهِ مَرَضُ الْمَوْتِ جَاءَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ سَاعَةٍ هَذِهِ؟
قَالُوا: نَحْنُ قَرِيبٌ مِنَ الصُّبْحِ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِأَلِهِ مِنْ صَبَاحٍ يُفْضِي بِي إِلَى النَّارِ! أَعُوذُ بِأَلِهِ مِنْ
صَبَاحٍ يُفْضِي بِي إِلَى النَّارِ! ثُمَّ قَالَ: أَجِنْتُمْ بِكَفَنٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: لَا تُغَالُوا بِالْأَكْفَانِ، فَإِنْ يَكُنْ
لِي عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ بَدَلْتُ بِهِ خَيْرًا، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى سَلَيْتُ مِنِّي، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّي
كُنْتُ أُحِبُّ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى، وَالذِّلَّةَ عَلَى الْعِزِّ وَأُحِبُّ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ، ثُمَّ قَالَ وَرُوحُهُ تَفِيضُ،
حِينَئِذٍ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ:

حبيبٌ جاء على شوقٍ لا أفلح من ندم.

السائل: لا يسعنا إلا أن نقول: رحمة الله عز وجل على هذا الصحابي الجليل حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ.
والشُّكْرُ الْجَزِيلُ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ رَاتِبِ النَّابِلَسِيِّ؛ الْأَسْتَاذِ الْمُحَاضِرِ فِي كَلِيَّةِ التَّرْبِيَةِ فِي
جَامِعَةِ دِمَشْقَ وَأُحَدِ خُطَبَاءِ مَسَاجِدِ دِمَشْقَ.

والحمد لله رب العالمين